كامل التلمسانى

«السواد والدماء والأشكال الممزقة، والخطوط الحزينة الصارخة هى الصور الوحيدة التى يمليها على الفنان عالم غير متجانس، تعيش فيه إنسانية مشوهة».
كامل التلمسانى

ولد كامل التلمسانى لأسرة شديدة الفقر فى قرية نوى (مركز شبين القناطر)، وبرغم فقرها طمحت إلى تعليمه. وعندم حصل على الابتدائية ارتحلت الأسرة بحثاً عن الرزق إلى القاهرة التى وصفها التلمسانى أكثر من مرة بأنها مدينة متوحشة. وإلى المدرسة السعيدية، وهناك، وكما اعتدنا، تتلقفه أيدى أستاذ أساتذة الفن التشكيلى يوسف العفيفى مدرس الرسم بالمدرسة. وحصل كامل التلمسانى على البكالوريا والتحق بكلية الطب البيطرى، لكن جنون الرسم لاحقه فأهمل الدراسة ورسب ثم رسب ثم رسب وكان رسوبه الأخير اختياراً، فقد توافق موعد الامتحان مع موعد افتتاح معرضه الخاص. لم يذهب إلى الامتحان، وذهب إلى الفن.

وقد أبدع التلمسانى لوحات أكثر من رائعة، وصفها شيخ النقاد التقدميين رمسيس يونان قائلاً: «قد نرى فى صور التلمسانى زرقة السماء، وخضرة الحقول، وحمرة الورود، ولكن السماء والحقول والورود والحمرة والخضرة والزرقة تأتى فى صورة معان غير تلك المعانى التى يراها الخارجون للنزهة مع عيالهم أيام الجمع والآحاد، هذه الوجوه المتعبة المكدودة وهذه الأجسام الممتلئة لوعة، المحاطة بهالة من السواد، وهذه العيون التى لم تزل تلمع بشرر التمرد مع شدة الإعياء، وهذه الشعور الشريدة بين عواصف الحيرة والقلق والثورة. هذا ما تقابلنا به صور التلمسانى، وقد لا تسعدنا المقابلة، لكن المفاجأة تصدمنا فنحس خلال أعصابنا أصداءها تأتى حلقة بعد حلقة حتى تصل إلى قرارة الأحشاء» (المجلة الجديدة – عدد ٤٠٣ – صـ٩). ويقول ناقد آخر هو «آرتين مريل»: «التلمسانى

متطرف فى استخدام عناصر الهدم والتحطيم، ولكن رغبته فى إرضاء أكثر الناس اعتدالاً جعلت الشخصيات التى يرسمها تكتفى بجرعات محدودة من الشجاعة». أما التلمسانى نفسه فقد كتب عديداً من المقالات النقدية اللاذعة والشديدة القسوة على عديد من الأعمال التشكيلية اشتبك فيها بحوار شديد القسوة مع الرسامين. فكتب عن لوحة قائلاً: «لماذا تنتحرين أيتها الكآبة التى نسجت كل قطرة دم منك ظلا؟ أيتها المخلوقة الحزينة التى عجنت لك قطرة دم منك ظلاً». ثم يتحدث عن لوحة أخرى ويخاطب المشاهد: «انزع اللوحة، حطم الإطار وألقه بعيداً من النافذة حتى تستطيع أن تعيش مع هذه الكائنات العزيزة التى خطفها الغيورون الذين لا يفهمون الحياة والإنسان».

لكن ثمة شيئاً يوجع قلب التلمسانى ووجدانه فأقاربه فى «نوى» وجيرانه فى القاهرة لا يفهمون ما يكتب ولا ما يرسم وربما كانوا يتهكمون عليه وعلى رسومه ومقالاته. ويتحدث جورج حنين عن أحزان التلمسانى قائلاً: «إنه يطمح أن يكون محبوباً ومفهوماً» ولهذا تمرد التلمسانى على الفن التشكيلى والمقالات غير المفهومة، فإن كان يردد مع زملائه مقولة «الفن للحياة» و«الفن فى خدمة المجتمع» فلماذا نرسم رسماً سيريالياً لا يفهمه الناس ونكتب ألغازاً يتهكمون عليها؟ وأجرى التلمسانى نقاشاً مع زملائه جورج حنين ورمسيس يونان وأنور كامل وفؤاد كامل وغيرهم، وكانوا تروتسكيين، وسأل: لماذا لا نرسم ونكتب ما يفهمه الناس؟ فاتهموه بأنه ستالينى يريد أن يطوع الفن لخدمة السياسة. فترك لهم الفن غير المفهوم والكتابة المليئة بالألغاز وارتحل كلية إلى فن يفهمه الناس ويحبونه، ذهب إلى السينما التى وصفها بأنها «سحر القرن العشرين» فى كتابه الجميل «عزيزى شارلى».

وفى عام ١٩٤٤ عمل مساعد مخرج فى استوديو مصر، وفى عام ١٩٤٦ أخرج واحداً من أجمل أفلام هذه المرحلة وأكثرها ارتباطاً بالجماهير ومشاكلها هو فيلم «السوق السوداء»، لكن الفيلم لم ينجح جماهيرياً، فقد تكاتف ضده تجار السوق السوداء فى السينما وحذرت بعض الصحف من هذا النوع «الثورى» من الأفلام، واضطر التلمسانى إلى التراجع قليلاً فأخرج أفلاماً عادية مثل «أنا وحبيبى» و «كيد النساء» و «البوسطجى» و«الناس اللى تحت».

وفى هذه الأثناء كان يكتب، لكن كتاباته تركزت أساساً فى فن السينما فأصدر كتابين «عزيزى شارلى» و «سفير أمريكا بالألوان الطبيعية».

إنه الطائر المهاجر دوماً بحثاً عن الشعب والحقيقة. هرب من كلية الطب البيطرى إلى الرسم ومن الرسم إلى الكتابة ومن الكتابة ومن الرسم معا إلى السينما فكتب قائلاً: «إن الرسم لا يصل إلا إلى البرجوازية وحدها فهى التى تشاهد الأعمال التشكيلية، والسينما الآن هى أفضل وسيلة للوصول إلى الجماهير».

ولم يتوقف التلمسانى عن الكتابة، وحتى الكتابة السياسية الساخطة على الأوضاع القائمة، لكنه كان يوقع فى أغلب الأحيان باسم مستعار، ونقرأ له: «فى هذه الأيام العصيبة والممتلئة ظلمة يعيش الفنانون فى هذه البلاد فى أبراج أرستقراطية عالية، وفى عزلة غريبة بعيدة كل البعد عن جوهر المجتمع وبينهم وبين إخوانهم فى الإنسانية حائط صد». قال ذلك فأغضب رفاقه القدامى فى جماعة «الفن والحرية»، ثم هو يغضب القائلين بالفن للفن فيقول: «خلف هذا الانحطاط الثقافى تكمن مأساة الفن للفن التى يعيشها فنانونا بين النسخ والنقل عن تلك القناطير من الزبالة والبقالة الفنية المتوارثة والتى تخزنها الحكومات فوق جدران مدارسها الكلاسيكية».

ويكتب عن الفنون الأخرى قائلاً: «إن السينما والمسرح والغناء والموسيقى المصرية عبارة عن تجارة يقوم بها بضعة بقالين لسرقة الشعب المسكين الذى هو أكثر الطبقات مشاهدة للأفلام. إن شخصاً مثل عبد الوهاب ينقل كل موسيقاه بجرأة غريبة عن الموسيقى الغربية، وهو ينقل حرفياً أتعس ما أوجدته هذه الموسيقى، فإن كان لا بد أن ينقل فلماذا لا ينقل عن كورساكوف أو رحمانينوف؟ ثم هو يهاجم موقف الأزهر من اختلاط الجنسين ويقول: «إن ذلك يؤدى إلى أمراض نفسية تتحول إلى تجارة فى أفلام هابطة تستثير غرائز الشباب» (المجلة الجديدة – ١٩٤٢/٦/١٧).

ويبقى أن نختتم بعبارة للتلمسانى «على الدولة أن تحقق لكل فرد نصيبه من الشعر والفن ونصيبه من الخبز فى آن واحد».